الفن المعاصر

AL.FANN AL.MOASER Contemporary Art Review Revue d'Art contemporaine

5
ربيع
2004

أكاديمية الفنون
ACADEMY of ARTS
ACADEMIE des ARTS

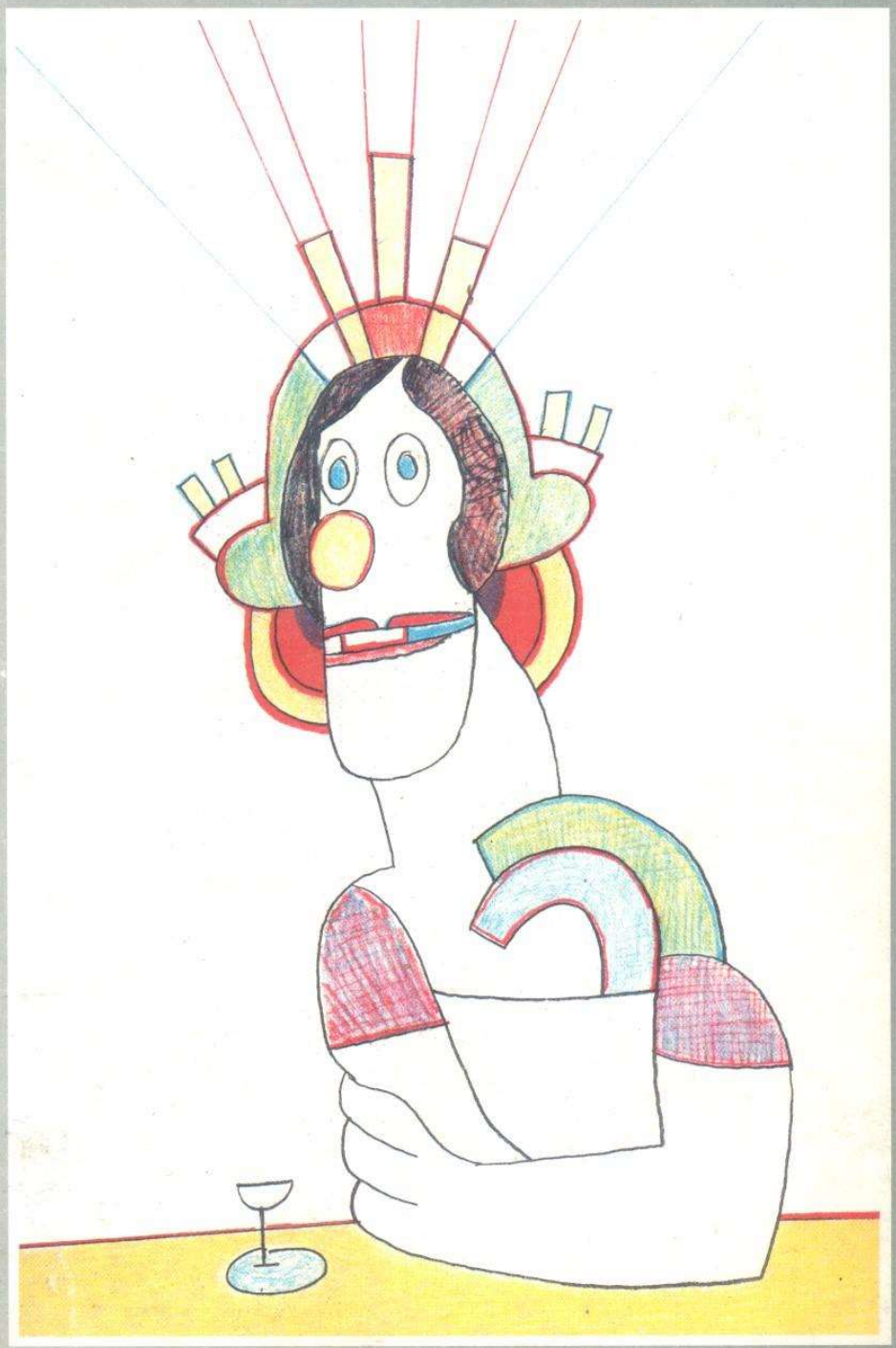

الفن المعاصر

مجلة علمية محكمة تصدرها أكاديمية الفنون

لوحة الغلاف

سول ستينبرج [١٩١٤ – ١٩٩٩]، «بونبون رودان»، ١٩٧٢، متحف المتروبوليتان، نيويورك.

ولد «ستينبرج» في رومانيا، وأنهى دراسته للعمارة في ميلانو عام ١٩٤١، وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٢، وشارك في الحرب العالمية الثانية بدءًا من عام ١٩٤٣.

الفن المعاصر

مجلة فصلية متخصصة فى الفنون تصدرها أكاديمية الفنون

رئيس الأكاديمية

أ . د. هانى مطاوع

نائب رئيس الأكاديمية

أ . د. شاكر عبد الحميد

رئيس التحرير

أ . د. فوزى فهمى

مدير التحرير

أ.م.د. وائل غالى

سكرتير التحرير

أحمد رمضان

مستشارو التحرير

أ . د . سمحة الخولى

أ . سعد أردش

أ . توفيق صالح

أ . د. نبيل راغب

أ . د. رتيبة الحفنى

أ . د. صلاح قنصوة

أ. صفوت كمال

هيئة التحرير

أعضاء هيئة التدريس بأقسام اللغات والترجمة بمركز اللغات والترجمة بالأكاديمية

التصميم الفنى

محيى الدين اللباد

المحتويات

كلمة المحرر

مسرح

أزمة اللغة فى " المسرح الجديد" الإسبانى 015

بقلم : خوسيه جارثيا تمبلادو • ترجمة : د. خالد سالم • مراجعة : أ.م.د . حسن عطية

المرأة فى الأعمال المسرحية اليابانية الحديثة 035

بقلم : كوايكيه ميساكوو • ترجمة : نجلاء الحفنى • مراجعة : د. عادل أمين

سينما

ما بعد التصوير الفوتوغرافي وما بعده 057

من النسخ الآلي إلى الإنتاج الرقمي

بقلم : جوران سونيسون • ترجمة : داليا صبرى • مراجعة : أ.د. هشام أبوالنصر

شارات الرؤية 077

بقلم : محرر مجلة الجمعية الدولية للبيسبول •ترجمة : د. إيمان حجازى • مراجعة : د. يحيى عزمى

موسيقى

نظرية المجال فى علم علامات الموسيقى 091

بقلم : فكتور أ. جراور • ترجمة : التحرير • مراجعة : أ.د. راجح داود

موسيقى الجاز والعرق 107

بقلم : ساندى كارتر • ترجمة : هبة نبيل • مراجعة : أ.د عزة مدين

رقص

التخطيط المادي : مراجعة الرقص الرقمي ١٩٩٧" 119
بقلم : سوزان كوزيل • ترجمة : د. سومية مظلوم • مراجعة : أ.د نبيل راغب ، د. محمود كامل

ثقافة الرقص ، رقص الثقافة 131
بقلم : شارى كورنيللى • ترجمة : د. سحر فراج • مراجعة : د. محمود كامل

فنون شعبية

العابر والخالد أم غسق المحدثين؟ 159
بقلم : فيليب مانورى • ترجمة : التحرير • مراجعة : أ.د. راجح داود

سياسات الهوية 173
بقلم : جون براون تشايلدز • ترجمة : د. سمية رمضان • مراجعة : أ.د نبيل راغب

فنون تشكيلية

المجالات المعرفية الممكنة من خلال مشروع "الأروقة" 189
بقلم : لورا تشيزا • ترجمة : د. محمد لطفي نوفل • مراجعة : أ.د. مصطفى عثمان

الصفات الأساسية والتفسير النفسي والفسيولوجي للإدراك الحسي للألوان 211
بقلم : أوستن كلارك • ترجمة : أ.د. أمين الرباط • مراجعة : أ.د عبد الحميد الخريبى
أ.د. شاكر عبد الحميد

نظرية نقدية

البلاغة في مقابل الواقع 251
بقلم : ميخائيل ألبرت • ترجمة : د. محمد الجندى • مراجعة : أ.د. نهاد صليحة

نظام العلامات السردية والاستطرادية 261
بقلم : جوزيف كورتيس • ترجمة : أ.د حمادة إبراهيم • مراجعة : أ.د منى صفوت

نظرية ثقافية

الثقافة والسلعة 275
بقلم : ماري فرناندو بولونييزي • ترجمة : د. سمير متولى • مراجعة : أ.م.د. حسن عطية

نقد العقل الغربي، والاستشراق ، والأصولية الإسلامية 285
بقلم : منى أباظة و جيورج ستاوت • ترجمة : سامح فكرى • مراجعة : أ.د صلاح قنصوة

اتصال

علم العلامات الحيوية : المدخل الوظيفي-التطوري إلى تحليل معنى المعلومات .. 331
بقلم : أليكسى أ. شاروف • ترجمة : د. محمد لطفى نوفل • مراجعة : أ.د. نبيل راغب

تجديدات القطيعة أو التكنولوجيات المتقدمة والمستقبل 377
بقلم : إليو فليزيا • ترجمة : د. فيفى فريد • مراجعة : أ.د. حمادة إبراهيم

إبداع

مسرحية «الملك وأنا» 409
بقلم : أوسكار هامرشتاين • ترجمة : د. سامى صلاح • مراجعة : أ.د. أمين الرباط

وثائق ثقافية

عالم بلا جدران 505
بقلم : بيل كلينتون • ترجمة : تامر عبد الوهاب • مراجعة : د. محمود كامل

سقوط النسر 517
بقلم : عمانوئيل فلرشتاين • ترجمة : أ.د أمين الرباط • مراجعة : أ.د عبد الحميد الخريبى

مصطلحات

الإصلاح الفكرى ، تمازج التخصصات، إصلاح الجامعة 539
بقلم : إدجار موران • ترجمة : د. چيهان عيسوى • مراجعة : أ.د حمادة إبراهيم

كلمة المحرّر

نقدم، هنا، للعدد الخامس، من أعداد مجلة الفن المعاصر، في الوقت الذي يستعيد فيه، العالم، شكه التام في قيم الحضارة الإنسانية بعامة. من سترندبيرج السويدي إلى برتولد برشت الألماني، ترتاب الطليعة الفنية والأدبية العالمية في قيم الحضارة الغربية. ترتاب في التقدم، وفي العلم والصناعة، وفي التيار الوضعي والمادي، وتضخم النزعات الفاشية/النازية/الفاشية الجديدة... لكنها ترتاب أيضا في غرور الاستعمار والهيمنة على الثروات والشعوب، وغير ذلك من ظواهر الحضارة الغربية الحديثة وما بعد الحديثة. لذلك تظل الريبة العالمية مزدوجة : الريبة من الحضارة ومن نقيضها معا.

يرتاب المثقفون الغربيون، منذ مطلع القرن العشرين تقريبًا، في معنى التقدم والتطور. ويحتجون على المدنية. وليس الشك الراهن بالشيء الجديد؛ وإنما تمتد جذوره في التراث العقلي الأوروبي القديم والحديث بعامة، وفي مدارس اليونان بخاصة. وسبق أن مجد بعضهم القبح واعتبره عنصرا من عناصر الجمال الفني، وثار بعضهم الآخر على أوروبا ومدنيتها في الفنون والثقافة. وثار آخرون على انهيار الأخلاق. وتنبأ آخرون بالعدمية وببدء عصر جديد، وإنسانية جديدة تمجد القوة. صار الوعي الغربي إلى اللاشعور، واستعاد بدائيته، وأراد تحطيم الواقع الخارجي. صار الوعي الغربي إلى تحليل إنهيار الحضارة الغربية بين المرض، والتيه، والانحطاط الحضاري الغربي، والتناقض بين الحياة والتاريخ، ومضار التاريخ للحياة، والحياة المنسية لا الذكر، والأزمة العدمية الحضارية الغربية، وأزمة التمرد والإرهاب، وتخفيض قيمة القيم كلها، والعبث واللامعقول، وعدمية المثال الميتافيزيقي نفسه، والأكاذيب، والفصل بين القيم والأخلاق، والإسقاط الميتافيزيقي، وموت القيم الكونية، من العدمية المنفعلة إلى العدمية الفعالة، وتجاوز العدمية، الفوضى، والنفيّ. ترتاب الطليعة الفنية ...

... والأدبية العالمية في الذات، وفي البداية من الصفر، وفي "وقائع الوعي"، وفي النفس، وفي العلية، وفي التوازي النفسي–الفسيولوجي، وفي الإرادة. صار العلم إلى السؤال، وصار إلى العدمية، وصار التفاؤل العقلاني إلى موضع الأخلاق، وصارت الموضوعية العلمية إلى موضع السؤال، وصارت الميتافيزيقا إلى ينابيع السؤال.

استعادت الفنون والثقافة العالمية الراهنة، فنون وثقافة بدايات القرن العشرين، وكأن قرنًا لم يقع قط. استعادت السياسة العالمية سياسة القرن التاسع عشر الميلادي ، وكأن قرنًا من التحرر الوطني لم يقع قط. استعادت الهيمنة العالمية سياسة الاستعمار القديم ، وكأن قرنًا من الاستقلال الوطني لم يقع قط. استعادت السيطرة العالمية السياسة الإمبراطورية القديمة، وكأن قرنًا من حركات التحرر الوطني لم يقع قط. صارت مابعد الكولونيالية إلى الكولونيالية القديمة بوسائل إلكترونية بعد حديثة.

تحتج الفنون والثقافة على المدنية الغربية التي تطرفت في استخدام الآلة إلى حد غير إنساني. تثور على المدنية والآلية. تستعيد الحركة الفنية والروحية، التي كانت قد بلغت ذروتها في العشرينيات، وما زالت تطبع الفكر الأوروبي الحديث بطابعها إلى اليوم. تزحف ذئاب الفاشية، وقطعانها الهمجية، من جديد. وتندلع نيران الحرب العالمية الرابعة.

يئس العالم من الحضارة والثقافة والمدنية. ويتمرد المثقف الغربي على الحضارة الغربية بوجه عام، ويفضل التدفق المحموم على الوضوح الصارم ، والنشوة على العقل والنظام. هل يقدر الفن أن يتجاوز حدود الواقع ؟ هل يقدر أن يبلغ جوهر الإنسان وحقيقته التي طالما حجبتها المدنية الآلية خلف قناع كثيف من التصنع؟ إنها عودة

الإنسان التقليدي. إنها استعادة للإنسان القديم – الإنسان الذي يتقيد بنظام حضاري وثقافي جنى عليه وأحاله إلى وحش. إنه الاندفاع والجموح بدل النظام والشكل. إنها الأساطير والخرافات وحكايات الجن ونصوص التصوف القديم ورؤاه، بدل القيم العقلية. وفي الوقت الذي تسيطر فيه القوة على العقل، يلتمس الفنانون التعبير المرئي واليدوي، الفرعوني والآشورى والياباني، ونماذج من النحت الإفريقى.. السابق على الحرف المكتوب. وفي الوقت الذي يسيطر فيه التشاؤم على اليوتوبيا، يستكشف الفنانون الفن البدائي الذي كان له أثر بالغ في تطور الفن المعاصر.

فالمدنية الإنسانية أو المدنية الغربية، تعيش نوعا من القلق، منذ مطلع نشأتها. لذلك، فكيف تصارع الحضارة العربية، المدنية الغربية "القلقة"، "المتصارعة هي نفسها داخليًا ؟ كيف تصارع الحضارة العربية، المدنية الغربية والصراع من طبيعة المدنية الغربية ؟ كيف تصارع الحضارة العربية، المدنية الغربية والحرب من طبيعة المدنية الغربية ؟ كيف تحل الحضارة العربية، السلام، محل الحرب الغربية ؟ كيف تقيم الحضارة العربية، السلام، مكان الإرهاب، الذي شوه صورتها ؟

في أكثر الأحيان ، يمثل الحلم بداية القلق ، مشروعا ، جدالا داخليا. لذلك لا تلبث الحضارة الغربية أن تضطهد غيرها. فنظرية شارل داروين في "أصل الأنواع"، التي عرفت يومئذ رواجًا كبيرًا، تكشف اليوم عن أبعاد جديدة في تطبيقاتها، خارج نطاق الطبيعة. إن المطلوب من المواطن غير الأمريكي أن يشعر أنه أدني من الآخرين، ومنبوذ عن نموذجهم، ولن يرضخ، فإن المواطن غير الأمريكي لا يفهم أبدا لماذا يتعين عليه أن يخجل من أصله. وبالمقابل نتنازل بغير ما أسف عن مشاركة الآخرين قوميتهم. فبإمكان المرء على الدوام أن يجد لنفسه مكانًا معينًا في إطار المجتمع الإنساني، حتى وإن استبعد من مثل ذلك المجتمع.

...

... إن مدار الأبحاث والدراسات والمقالات العلمية، المنشورة هنا، هو محاولة للبحث عن معنى آخر، عن حلم آخر، يقبل التفسير غير العدواني، بل يقبل الحياة لا الموت الذي يرسله إلينا المجتمع الصناعي المتقدم، عبر حروبه المتكررة، ومشاهده المعادة منذ نحو عقد من الزمان.

إن السبب في شعور الإنسان الغربي بالغربة في هذا العالم، الذي كان يومًا عالمًا جميلا، هو الاضطراب الذي أصاب موقف الغرب إزاء الموت. لم يكن هذا الموقف مستقيمًا، فقد كان الغرب- بالطبع- مستعدا لأن يعتقد أن الموت هو النتيجة الضرورية للحياة. وباختصار، إن الموت طبيعي، لا يمكن إنكاره، ولا يمكن اجتنابه. ومع ذلك فإنه - في الواقع- كان معتادًا أن يحيا كما لو كان الأمر يجري على نحو مغاير. فكان يبدي ميلا واضحا لأن يركن الموت "على الرف"، وأن يزيله من الحياة. لقد حاول أن يخرسه. فإن موتنا هو أمر لا يمكن تخيله. وكلما حاولنا أن نتخيله أدركنا أننا في الواقع نعيش كمشاهدين. لا أحد يعتقد- في أعماقه- بموته الشخصي، أو، إن كلا منا - في اللاوعي- مقتنع بخلوده الشخصي.

أما عن موت الآخر، فإن الإنسان المتحضر يجتنب - بعناية- الحديث عن مثل هذا الاحتمال على مسمع من الشخص المعني. والأطفال وحدهم هم الذين يغفلون هذا القيد. أما البالغ المتحضر فإنه لا يكاد يقدر أن يضمر فكرة موت الآخر من دون أن يبدو لنفسه قاسيًا أو شريرا. وعادتنا هي أن نركز كل التركيز على العلة العارضة للموت- حادث، مرض، عدوى، تقدم في العمر. وبهذه الطريقة نفضح محاولتنا لتعديل دلالة الموت من ضرورة إلى مصادفة. أما إذا واجهنا موت الكثيرين في وقت واحد، كما في الحرب، فإن ذلك يبدو لنا مثيرًا "للصدمة والترويع" ■

المسهمون فى هذا العدد

خوسيه جارثيا تمبلادو
أستاذ اللغة الإسبانية و آدابها بجامعة مدريد كومبلوتنسي بإسبانيا

كوايكيه ميساكوو
باحث في المسرح الياباني المعاصر

جوران سونيسون
أستاذ بقسم علم العلامات بجامعة لوند بالسويد

فكتور أ. جراور
أستاذ علم العلامات الموسيقية

ساندي كارتر
أستاذ الموسيقى

سوزان كوزل
أستاذة الرقص الإنجليزية

شاري كورنيللي
أستاذ الرقص

فيليب مانوري
أستاذ الموسيقى الفرنسي المعاصر

جون براون تشايلدز
أستاذ علم الاجتماع الأمريكي

لورا تشيزا
أستاذة العمارة الإيطالية

أوستن كلارك
أستاذ الفلسفة بجامعة كونيكتيكت بالولايات المتحدة

ميخائيل ألبرت
محلل سياسي أمريكي

جوزيف كورتيس
أستاذ النقد الفرنسي

ماريو فرناندو بولونييزي
أستاذ النقد الثقافي البرازيلي

منى أباظة
أستاذة الاستشراق

جيورج ستاوت
أستاذ دراسات الشرق الأوسط الأمريكي

...

أليكسي أ. شاروف
باحث بقسم الحشرات بمركز البحث العلمي بفرجينيا بالولايات المتحدة

إليو فليزيا
أستاذ العلوم التكنولوجية بجامعة إكس-مارسيليا بفرنسا

أوسكار هامرشتاين
شاعر غنائي مسرحي أمريكي

مارجريت لاندون
(١٩٠٣-١٩٩٣)، روائية أمريكية

بيل كلينتون
رئيس الولايات المتحدة السابق

عمانوئيل فلرشتاين
مفكر أمريكي، و عالم و أستاذ البحث الاجتماعي في جامعة ييل بالولايات المتحدة

إدجار موران
ناقد سينمائي أمريكي

لماذا الهوية غائبة؟

إن مفهوم الهوية أو الهوية الثقافية يتحدد بالقدرة التي يتمتع بها شخص ما أو جماعة ما، وتدور على هذا المفهوم، أسئلة مثل لماذا الهوية غائبة؟ أو كيف تكتسب الهوية؟. وجزء كبير من أبيات مفهوم الهوية يدور على مفهومي الإغتراب والتطبيع الإجتماعي، وبنية المناقشات حول هذه المفاهيم تقوم في ضرورة التطبيع الاجتماعي للناس أو الجماعات حتى يؤسسوا هويتهم، أو في كيفية معالجة المغتربين بمعونة اعادة التطبيع الاجتماعي بحيث يعودون الى ما كانوا عليه قبل الاغتراب [...] إن الإغتراب له علاقة بالعجز أو بفقدان المعنى.

ادوارد بونسل

عن بحث : ادوارد بونسل، "الهوية : أسطورة أم حقيقة؟"،
في كتاب : أ. د. مراد وهبة (المحرر)، "الهوية الثقافية في الزمان"، أبحاث المؤتمر الخامس للمجموعة الأوروبية العربية للبحوث الإجتماعية، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٩٢، ص ٢٧ .

وثائق ثقافية

عالم بلا جدران 505
بقلم : بيل كلينتون

سقوط النسر 517
بقلم : عمانوئيل فلرشتاين

الهوية فى عالم متغير

إن مفهوم الهوية من بين المفاهيم واسعة الانتشار ، ولكنها موضع خلاف بين علماء الاجتماع فى أوربا وفى الإقليم العربى. ومع ذلك فهذا المفهوم هو المدخل إلى دراسة التنمية والتخلف. ونحن على ألفة مع نوعين من الهوية واردين فى مؤلفات سيجموند فرويد. أولا، هوية الأنا على المستوى الفردى مثل نوع الهوية التى تنمو فى مسار التطبيع الاجتماعى فى الأسرة. والنوع الثانى هو هوية الجماعة أو الهوية الاجتماعية المرتبطة بالبيئة الاجتماعية حيث ينمو فيها الأفراد ويتعرفون على أنفسهم. ومضمون الهوية هو المعنى الثقافى السائد. ولهذا فإن تكوين إطار الهوية مرتبط ارتباطا وثيقا بعملية إنتاج المعنى. والمسألة الخلافية فى قضية الهوية تدور على كيفية تفسير الهوية فى عالم متغير.

بسام طيبى

عن بحث : بسام طيبى، "الهوية و الرؤية العالمية فى عالم متغير، التراث و التحول الثقافى و إنتاج المعنى فى الإقليم العربى"، فى كتاب : أ. د. مراد وهبة (المحرر)، "الهوية الثقافية فى الزمان"، أبحاث المؤتمر الخامس للمجموعة الأوروبية العربية للبحوث الاجتماعية، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٩٢، ص ٢١ .

سقوط النسر

بقلم : عمانوئيل فلرشتاين
ترجمة : أ.د. أمين حسين الرباط
مراجعة : أ.د. عبد الحميد الخريبى

يتناول عمانوئيل فلرشتاين، عالم الاجتماع الأمريكى الأشهر، فى المقال المترجم هنا تحت عنوان "سقوط النسر"، والصادر فى مجلة "السياسة الخارجية" الأمريكية المعروفة، يتناول ذلك العالم السوسيولوجى مسألة مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية لإمكانيتين اثنتين فى أثناء السنوات العشر الأولى من القرن الحادى والعشرين، فإما أن تتبع طريق الصقور، بكل الآثار السلبية المترتبة على السير فى هذا الطريق، بما فى ذلك بالنسبة إلى أمريكا نفسها، إما أن تتبع طريق الحمائم، فتدرك الآثار السلبية، وتجتنبها لنفسها والعالم على حد سواء. والسؤال الذى يدور حوله المقال، لا يتعلق بتدهور الهيمنة الأمريكية، إنما يتعلق بإمكان ابتكار الولايات المتحدة طريقة للهبوط برشاقة، وبأقل الأضرار للعالم لنفسها على السواء. وكلام عمانوئيل فلرشتاين جزء من ظاهرة عامة. فقد تولى بعض المثقفين والسياسيين المختلفين فى الغرب الأوروبى-الأمريكى، نقد "الفكر المزدوج" ، ورفض الهيمنة الأمريكية الجديدة لمصلحة الشرعية الدولية : الراحل بيار بورديو، وريجيس دوبريه، وبول ريكور، وجوليا كريستيفا، وفيليب سوليرس (فرنسا)، ويورجن هابرماس ...

... (ألمانيا)، وإريك هوسبوم، ومارك ب. سالتر (إنجلترا)، والراحل جون رولز، وناعوم تشومسكى (الولايات المتحدة)، تمثيلا لا حصرًا، لكل أصحاب الضمائر الشريفة العالمية الحالية. يدعو جون رولز إلى إنصاف العدالة. فلا ملاذ لدى فيلسوف الليبرالية السياسية الأمريكى الراحل، إلا بالإقرار بالكثرة، أى بما يسمى "التعددية" الصادرة عن حرية الرأى والضمير والتسامح. واعتبر ناعوم تشومسكى ربع القرن الأخير من القرن العشرين من الحروب الأفغانية، "حروبًا أمريكية"، تقع كامل مسئولية وقوعها واستمرارها وعواقبها، على كاهل الإدارة الأمريكية وحلفائها. وهذا الاعتبار إنما هو صدى لكلام المؤرخ الأمريكى البارز، أرثر تشيسنجر، حول التناقض بين القول بأن الولايات المتحدة دولة شأن الدول كافة، والقول بأن الأمريكيين شعب الله المختار، تقع على عاتقهم مهمة إنقاذ العالم من الأخطار المحتملة كافة.

بقى أن نلفت انتباه القارئ الكريم أن هذا المقال كتب قبل غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق .

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لنص مقال
Immanuel Wallerstein, "The Eagle Has Crash Landed", 1/11/0.
وعنوانه على شبكة الإنترنت الدولية:
http://www.foreignpolicy.com/issue_julyaug_2002/wallestein.html

انتهى السلام الأمريكى. كشفت التحديات من فيتنام والبلقان، مرورًا بالشرق الأوسط والحادى عشر من شهر سبتمبر من عام ٢٠٠١، عن حدود الهيمنة الأمريكية. هل يأفل نجم أمريكا فى هدوء، أو أن المحافظين سوف يقاومون هذا الأفول، ومن ثم يتحول الانهيار التدريجى إلى سقوط سريع، وخطير.
هل تنهار الولايات المتحدة ؟

فئة قليلة هى تلك التى تؤمن بهذا الزعم. وتلك الفئة هى الصقور الأمريكية U.S. Hawks التى تطالب، بأعلى صوت، بوضع السياسات لوقف هذا الانهيار. وهذا الاعتقاد بأن الهيمنة الأمريكية على العالم آخذة فى التدهور، وأن نهايتها وشيكة، وليست وليدة أحداث سبتمبر، وما كشفت عنه من ضعف الولايات المتحدة وعدم تَحَصُّنها ضد الهجوم. إنما بدأ أفول نجم الولايات المتحدة كقوة كونّية عظمى منذ السبعينيات من القرن العشرين، وقد كان لرد فعلها تجاه أحداث سبتمبر الإرهابية فضل الإسراع بعملية الانهيار ليس غير. ولكى نفهم الأسباب الكامنة وراء انهيار ما يطلق عليه "السلام الأمريكى"، لا بد لنا من دراسة الجغرافيا السياسية Geopolitics فى القرن العشرين، وبصفة خاصة العقود الثلاثة الأخيرة منه. وسوف تكشف لنا هذه الدراسة عن استنتاج بسيط جدًا، ولكنه فى الوقت نفسه، حتمى، ألا وهو أن العوامل العسكرية والسياسية والاقتصادية التى أسهمت فى صياغة الهيمنة Hegemony الأمريكية على العالم هى نفسها العوامل التى سوف يَتمخَّض عنها حتمًا انهيار أمريكا، الوشيك الوقوع.

فاتحة الهيمنة الأمريكية

لقد بدأ ظهور الولايات المتحدة، كقوة كونية عظمى مهيمنة، من خلال عملية تاريخية طويلة، ترجع فى بواكيرها إلى حالة الركود الاقتصادى الذى سيطر على العالم عام ١٨٧٣م. وفى تلك الحقبة، بدأت الولايات المتحدة وألمانيا تهيمنان على الجزء الأكبر من الأسواق العالمية، وبخاصة على حساب الاقتصاد البريطانى الذى كان يتدهور بصورة مطردة. وقد حققت كلتا الدولتين فى الفترة الأخيرة، قاعدة سياسية ثابتة، الأولى من خلال إنهاء الحرب الأهلية، والثانية من خلال توحيد شطريها، وهزيمة فرنسا فى حرب فرنسا-بروسيا. ومنذ عام ١٨٧٣ حتى عام ١٩١٤، ظلت الولايات المتحدة وألمانيا هما أكبر منتجين فى قطاعات صناعية ...

محددة : صناعة الصلب، ثم صناعة المركبات فى الولايات المتحدة، والصناعات الكيماوية فى ألمانيا.

وتورد كتب التاريخ أن الحرب العالمية الأولى قامت فى عام ١٩١٤، وأنها انتهت فى عام ١٩١٨، وأن الحرب العالمية الثانية استمرت من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٥ ، ومع تلك الحقائق التاريخية، فإنه من المنطقى أن نعتبر أن هاتين الحربين العالميتين هما حرب واحدة متواصلة بين الولايات المتحدة وألمانيا، استمرت طيلة ثلاثين عاما، تخللتها فترات من المهادنة والصراعات المحلية.

وقد تشكلت المنافسة بينهما على الهيمنة على العالم فى شكل أيديولوچى فى عام ١٩٣٣، عندما استولى الحزب النازى على السلطة فى ألمانيا وراح يسعى إلى تجاوز النظام العالمى كليةً، ليس من خلال الهيمنة وحسب؛ إنما من خلال شكل من أشكال الإمبراطورية الكونية.

دعنا نتذكر الشعار الذى رفعه الحزب النازى تحت عنوان : "إمبراطورية الألف عام" Ein Tausendjhriges. وفى مواجهة ذلك، وقفت الولايات المتحدة موقف النصير المؤازر للّيبرالية العالمية الوَسَطيَّة Centrist World Liberalism. ولنتذكر مقولة الرئيس الأمريكى الأسبق، فرانكلين روزڤلت، التى تطالب بالحريات الأربع

شروحات المحرر

- **الهيمنة : HEGEMONY**

تندفع العولمة الأمريكية إلى الهيمنة على خيرات ما فوق الأرض وما تحت الأرض ، وعلى كرامة "أبناء العالم الثالث". تتجلى فعاليات القضاء على تلك الخيرات، مباشرة وبنجاح تام ، فى قهر الثقافات الوطنية ببلدان العالم الثالث. قد يكون ، أحيانًا ، من بين أنصار هيمنة العولمة ، "مثاليون" ينخدعون بنظريات مغرية وبأساطير غذتهم ، منذ الصبا ، فترعرعت فى مخيلتهم ، إذ "صادفت قالبًا خاليًا ، فتمكنت". فهؤلاء ، عن حسن نية ، يندفعون والتيار، مع شىء من العطف على أبناء العالم الثالث.

(حرية التعبير، حرية العبادة، التحرر من الفقر، التحرر من الخوف). ولنتذكر أيضًا تحالف أمريكا الاستراتيچى مع الاتحاد السوڤيتى الذى أدى إلى هزيمة ألمانيا ودحرها هى وحلفائها.

نَجَم عن الحرب العالمية الثانية تدمير البنية التحتية، وشعوب أوروبا الآسيوية Eurasia من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى، من دون أن تنجو دولة واحدة من آثار هذا الدمار. وكانت الدولة الوحيدة التى خرجت من هذه الحرب سالمة غانمة كقوة اقتصادية كبرى تزداد ثراءً هى الولايات المتحدة، التى تحركت سريعًا لتعزيز وضعها الجديد.

لكن الهيمنة Hegemon التى كانت تطمح إليها الولايات المتحدة واجهت بعض العقبات السياسية العملية. ففى غضون تلك الحرب، اتفق الحلفاء على تأسيس منظمة "الأمم المتحدة" التى تألفت من الدول التى تحالفت، بصفة أولية، ضد دول المحور. وكان "مجلس الأمن" هو أهم مَلْمح من ملامح تلك المنظمة، إذ إنه الجهة الوحيدة التى تعطى الحق فى استخدام القوة. ولأن ميثاق الأمم المتحدة يعطى حق النقض (الڤيتو Veto) للدول الخمس الكبرى- ومنها الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتى- فقد أصبح مجلس الأمن، فى حقيقة الأمر، بلا تأثير حقيقى. ومن ثم لم يكن تأسيس الأمم المتحدة فى شهر إبريل من عام ١٩٤٥ هو الذى حدد ضوابط الجغرافيا السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، بل ما حددها، بعبارة أكثر دقة، هو "اجتماع يالطا" الذى عقد بعد ذلك بشهرين بين كل من روزڤلت، وتشرشل، وستالين.

لم تكن الاتفاقات الرسمية التى عقدت فى يالطا بأهمية الاتفاقات السرية التى تم إقرارها. ويقدر المرء تقويم هذه الاتفاقات السرية من خلال ممارسات كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتى فى السنوات التى أعقبت اجتماع يالطا.

فعندما وضعت الحرب أوزارها فى الثامن من مايو ١٩٤٥، كانت القوات السوڤيتية والغربية (أى القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية) متمركزة فى أماكن محددة، بصورة رئيسة، حول خط بات يعرف فيما بعد بخط أودر- نيسىOder-neisse. ومع بعض التعديلات الطفيفة على هذا الخط، ظلت تلك القوات متمركزة هناك. وبنظرة خاطفة إلى الوراء، نقدر أن ندرك أن اتفاقية يالطا كانت فى المضمون والهدف، تعنى بقاء قوات الطرفين فى أماكنهما، وأن أيًا من الطرفين لن يلجأ إلى استخدام القوة لطرد الآخر من مكانه. كما أن تلك الاتفاقية السرية كانت تنطبق أيضًا على آسيا، كما اتضح من احتلال أمريكا لليابان وتقسيم كوريا.

وهكذا نرى أن اتفاقية يالطا، كانت، من ...

... المنظور السياسى، اتفاقية بقاء الحال على ما كانت عليه، بحيث يسيطر الاتحاد السوفيتى على قرابة ثلث العالم، فى حين تسيطر الولايات المتحدة على بقية العالم.

كذلك واجهت واشنطن مزيدًا من التحديات العسكرية الخطيرة. مثال ذلك أن الاتحاد السوفيتى كان يمتلك أكبر قوات برّية فى العالم، فى الوقت الذى كانت تتعرض فيه حكومة الولايات المتحدة للضغوط الداخلية لتحديد حجم قواتها، وإنهاء حالة التجنيد الإجبارى. لذا قررت الولايات المتحدة تعزيز قدراتها العسكرية من خلال احتكار الأسلحة النوويّة، وتعزيز قواتها الجوية، حتى تقدر على نشر تلك الأسلحة النوويّة. لكن سرعان ما اختفى هذا الاحتكار. ففى عام ١٩٤٩ تمكن الاتحاد السوفيتى من تطوير أسلحته النووية. ومنذ ذلك التاريخ، اقتصر دور الولايات المتحدة على السعى إلى منع امتلاك دول أخرى للسلاح النووى (والبيولوچى والكيماوى). وهو سعى يبدو أنه لن يحظى بقدر كبير من النجاح فى القرن الحادى والعشرين.

حتى عام ١٩٩١، ظل الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة يتعايشان فى ظل "ميزان الرعب النووى Balance of Terror الذى كان سائدًا فى حقبة الحرب الباردة. وقد تعرض جمود الوضع آنذاك إلى اختبارات ثلاثة خطيرة :

١) حصار برلين فى عامى ١٩٤٨-١٩٤٩،
٢) الحرب الكورية فى الأعوام ١٩٥٠-١٩٥٣،
٣) أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢.

وكانت النتيجة فى كل حالة من هذه الحالات الثلاث هى العودة إلى تجميد الوضع Status quo، أو سياسة الأمر الواقع. كذلك لا بد أن نلاحظ أن الولايات المتحدة لم تقم بأكثر من حملات دعائية ضد الاتحاد السوفيتى عندما تعرض لأزمات سياسية مع النظم الحاكمة التى تدور فى فلكه، كما حدث فى ألمانيا الشرقية عام ١٩٥٣، والمجر عام ١٩٥٦، وتشيكوسلوڤاكيا عام ١٩٦٨، وبولندا عام ١٩٨١. وفى النهاية، سمحت الولايات المتحدة للاتحاد السوفيتى بأن يفعل ما يراه مناسبًا له فى تلك الدول.

بالطبع، لم تمتد هذه السلبية إلى الميدان الاقتصادى، فقد استثمرت الولايات المتحدة بيئة الحرب الباردة للقيام بجهود اقتصادية إعمارية كبيرة، أولا فى أوروبا الغربية، ثم بعد ذلك فى اليابان وكوريا الجنوبية، وتايوان. ولا شك أن الأساس المنطقى الذى تبنى عليه تلك الجهود شديد الوضوح، وهو أنه لا جدوى من السيطرة الإنتاجية الساحقة إذا لم يكن هنا طلب حقيقى على ذلك الإنتاج فى بقية أنحاء العالم. إن إعادة البناء الاقتصادى سوف تساعد على خلق التزامات Clientelistic من العملاء فى تلك الدول التى

تتلقى المساعدات من الولايات المتحدة. ثم إن الإحساس بالولاء للولايات المتحدة سوف ينمى الرغبة والاستعداد لدى هذه الدول، للدخول فى تحالفات عسكرية معها، والأكثر أهمية ، هو الدخول فى مجال التبعية السياسية.

وفى نهاية الأمر، لا بد من الامتناع عن الحد من أهمية المُكوَّن الثقافى والأيديولوچى للهيمنة الأمريكية إذا كانت حقبة ما بعد عام ١٩٤٥ هى الحقبة التاريخية التى راجت فيها الأيديولوچية الشيوعية. وننسى بسهولة الآن الكم الضخم من الأصوات التى حصلت عليها الأحزاب الشيوعية فى العمليات الانتخابية الحرة فى دول مثل بلچيكا، وفرنسا، وإيطاليا، وتشيكوسلوڤاكيا، وفنلندا، فضلاً عن التأييد الذى كانت تحظى به الأحزاب الشيوعية فى آسيا، وفى دول مثل ڤيتنام والهند واليابان، وفى أرجاء أمريكا اللاتينية كافة. وهذه النظرة تستبعد دولاً، مثل الصين واليونان وإيران، وهى الدول التى لم توفر آنذاك الانتخابات الحرة، مع أن الأحزاب الشيوعية فى هذه البلدان كانت تتمتع بوجود وانتشار عظيمين. وفى مواجهة ذلك، واصلت الولايات المتحدة هجومها الأيديولوچى المضاد للشيوعية. وإذا عدنا إلى الوراء لرأينا مدى نجاح تلك المبادأة الأمريكية. فقد غلفت الولايات المتحدة دورها كزعيمة "للعالم الحر"، بالبريق والجمال، على نحو لم يقل، فى فاعليته، عن دور الاتحاد السوڤيتى، كزعيم للمعسكر "التقدمى" المضاد للإمبريالية.

تعميم نموذج حرب ڤيتنام

أدى نجاح الولايات المتحدة كقوة مهيمنة على العالم فى فترة ما بعد الحرب العالمية إلى خلق الظروف التى قادت إلى زوال السيطرة السياسية على الأمة الأمريكية داخليًا. وتتجلى هذه العملية فى أربعة رموز، وهى :

١- حرب ڤيتنام.

٢- ثورات عام ١٩٦٨ . ...

٣- سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩.
٤- الهجوم الإرهابى فى الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١.

وقد بنى كل رمز من هذه الرموز على الرمز السابق عليه، وتراكم فوقه، حتى بلغت الأمور ذروتها فى الموقف الذى وقفته الولايات المتحدة فى الفترة الراهنة، ألا وهو أنها القوة العظمى الوحيدة التى تفتقر إلى القوة الحقيقية، وزعيمة العالم التى لا يَتَّبعها أحد، ولا تحظى بالاحترام إلا من قلة قليلة من البشر. ... أمة تنجرف على نحو خطير فى غمار فوضى كونية لا تقدر على السيطرة عليها.

وإذا صغنا السؤال التالى : ما الحرب الڤيتنامية؟ فإن الرد الذى يتبادر إلى ذهننا فى التو هو أنها، أولا وقبل شىء، محاولة من الشعب الڤيتنامى لوضع حد للسيطرة الاستعمارية على مقدراته ، وتأسيس دولته المستقلة. لقد خاض الشعب الڤيتنامى غمار الحرب ضد فرنسا واليابان وأمريكا، وفى النهاية، خرج رابحًا من هذه الحرب ـ تماما، وقد كان ذلك إنجازًا حقيقيًا. من وجهة نظر علم الجغرافيا السياسية، اعتبرت شعوب ما يسمى بالعالم الثالث أن هذه الحرب تمثل رفضًا وخروجًا على اتفاقية يالطا التى تقرر سياسة "الأمر الواقع". وقد تحولت حرب ڤيتنام إلى رمز قوى الدلالة، خاصة أن الولايات المتحدة كانت حمقاء إلى درجة أنها استخدمت كل جبروتها العسكرى ضد هذا النضال، ومع ذلك مُنيت بالهزيمة. نعم لم تستخدم الولايات المتحدة أسلحتها النووية (وهو قرار لامتها عليه الجماعات اليمينية القصيرة النظر لوقت طويل)، إلا أن استخدام تلك الأسلحة النووية كان سيؤدى حتمًا إلى تدمير اتفاقات يالطا ، وربما أدى إلى قيام حرب نووية مدمرة ومُحرقة، الأمر الذى لا يمكن الولايات المتحدة أن تخاطر به.

غير أن حرب ڤيتنام لم تكن مجرد هزيمة عسكرية، أو وصمة عار تلطخ الكرامة الأمريكية؛ فقد سددت تلك الحرب ضربة شديدة، فى مَقْتَل ،إلى قدرة الولايات المتحدة لأن تظل متربعة على عرش الاقتصاد العالمى كقوة اقتصادية مسيطرة. كان هذا الصراع باهظ التكاليف إلى درجة كبيرة، مما أدى، تقريبًا، إلى استنزاف احتياطيات الذهب الوافرة التى كانت تمتلكها الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥. وفى الوقت الذى تكبدت فيه الولايات المتحدة هذه التكاليف الباهظة، حققت أوروبا الغربية واليابان طفرات اقتصادية ضخمة. وقد أدت هذه الظروف إلى إنهاء صدارة الولايات المتحدة للاقتصاد العالمى. هذا، وجدير بالذكر أنه منذ حقبة الستينيات من القرن العشرين، ظل أعضاء هذا الثالوث الاقتصادى (الولايات المتحدة، واليابان، وأوروبا الغربية) أندادًا متساوين، على وجة

التقريب، فى المجال الاقتصادى، يتفوق أحدها على الآخر لمدة محددة، من دون أن يسبقه بمسافة كبيرة إلى الأمام.

وعندما اندلعت شرارة الثورة فى عدة بلدان عام ١٩٦٨ فى أنحاء العالم كافة، أصبح التأييد للشعب الڤيتنامى عنصرًا مهمًا من عناصر الخطابة فى تلك البلدان، وتردد شعار " تعميم نموذج ڤيتنام" ... وتَرنَّم الناس فى كل الشوارع، فى كل مكان فى العالم، حتى فى شوارع الولايات المتحدة، باسم "هو شى من ... هو شى من... هو شى منه Ho, Ho, Ho, Chi Minh ولم يشجب ثوار عام ١٩٦٨ الهيمنة الأمريكية وحسب؛ وإنما شجبوا تواطؤ الاتحاد السوڤيتى مع الولايات المتحدة، واتفاقية يالطا، وتكلموا لغة الثورة الثقافية الصينيّة، بعد تعديلها، تلك اللغة التى تُقسِّم العالم إلى معسكرين، القوتين العظميين من ناحية، وباقى دول العالم من ناحية أخرى.

وقد أدى استنكار التواطؤ السوڤيتى، منطقيًا وبالتبعية، إلى استنكار دور القوى الوطنية المتحالفة مع الاتحاد السوڤيتى، والتى كان يقصد بها الأحزاب الشيوعية التقليدية فى معظم الأحوال. غير أن ثوار عام ١٩٦٨م هاجموا أيضًا كل عناصر اليسار القديم، بما فى ذلك حركات التحرير الوطنية التى قامت فى العالم الثالث، والحركات الديمقراطية الاجتماعية فى أوروبا الغربية، والديمقراطيين الجُدَدْ فى الولايات المتحدة، وهى متهمة جميعًا بالتواطؤ مع حاملى لواء ما أطلق عليه "الإمبريالية الأمريكية".

وقد أضعف الهجوم على تواطؤ السوڤيت مع واشنطن، الذى اقترن بالهجوم على اليسار القديم، من مشروعية ترتيبات يالطا التى صاغت الولايات المتحدة النظام العالمى على أساسها، ومن ثم تم تقويض مركز "ليبرالية الوسط" Centrish Libralism التى كانت تُعّد بمثابة الأيديولوچية الشرعية الوحيدة. ومع أن النتائج السياسية للثورات العالمية عام ١٩٦٨م تعتبر محدودة تمامًا، إلا أن أصداءها الثقافية، والجغرافيا – سياسية، كانت كبيرة، ولا يمكن محو أثرها، أو الخلاص منها. ومن تلك الأصداء، سقوط مبدأ ليبرالية الوسط من عليائه التى احتلتها منذ ثورات أوروبا فى عام ١٨٤٨، والتى مكنتها من أن تجتذب المحافظين والراديكاليين على حد سواء. ومن ثم عادت الأيديولوچيات القديمة تطل برأسها من جديد دونما توحد تحت مبدأ ليبرالية الوسط. واتسع مجال الاختيار، فرجع المحافظون إلى ذواتهم كما كانوا سلفًا، وعاد الراديكاليون أدراجهم إلى فكرهم السابق. ومع أن الوسطيين الليبراليين لم يختفوا من الساحة تماما، إلا أنهم عادوا مرة أخرى إلى حدودهم الحقيقية. وفى ...

... أثناء هذه العملية، تحول الموقف الأمريكى الأيديولوچى الرسمى، المناهض للنازية والشيوعية، والاستعمار، إلى موقف هزيل وغير مقنع فى عيون شريحة متنامية من شعوب العالم.

القوة العظمى الضعيفة

كان لحالة الركود الاقتصادى التى أصابت العالم فى السبعينيات من القرن العشرين أثران بالغان فى قوة الولايات المتحدة؛ أولهما، أدى ذلك الركود إلى انهيار التنموية Developmentalism، وهى الأيديولوچية الرئيسة التى كانت تعتمدها حركات اليسار القديم فى السلطة آنذاك. ويقوم هذا المبدأ على فكرة أن كل دولة قد تحرز تقدمًا اقتصاديًا ملموسًا إذا ما اتخذت الحكومة السياسة السليمة المطلوبة. وراحت نُظُم الحكم، الواحد تلو الآخر، تواجه حالات من الفوضى الداخلية، وتدهور مستوى المعيشة، وتزايد اعتماد الاقتراض من المؤسسات المالية الدولية، عدا تضاؤل مصداقيتها أمام شعوبها. وهكذا أصبح ما كان يبدو ظاهريًا، فى عقد الستينيات من القرن العشرين، نجاحًا لدول العالم الثالث فى اتجاهها نحو الخلاص من نير الاستعمار بزعامة الولايات المتحدة، أصبح ضربًا من ضروب تَفسُّخ النظام، وتأجج حالات الرفض، وتفجُّر الميول الراديكالية الجامحة. ولم يتحقق ما كانت تصبو إليه الولايات المتحدة من انتقال السلطة بهدوء إلى النظم الحاكمة التى تسعى نحو التنمية الاقتصادية لشعوبها، بعيدًا عن الشعارات الثورية. وعندما حاولت الولايات المتحدة الحيلولة دون حدوث هذا التدهور، أصابها الفشل الذريع.

ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك. فى عام ١٩٨٣، حاول الرئيس الأمريكى، رونالد ريجان، أن يستعيد النظام فى لبنان، فأرسل قواته العسكرية للقيام بهذه المهمة، ولكن الذى حدث، فى حقيقة الأمر، كان طرد القوات الأمريكية من هناك وإجبارها على الانسحاب. فسعى إلى تعويض هذه الهزيمة بغزوة جرانادا، وهى دولة لا تمتلك أية قوات عسكرية. ثم قام الرئيس چورج بوش بغزو بنما، وهى أيضًا دولة بلا قوات تدافع بها عن نفسها. وبعد أن تدخل فى الصومال لاستعادة النظام، اضطر أن يسحب قواته بطريقة مخجلة من دون تحقيق أى نجاح. ولما كانت الولايات المتحدة لا تملك إلا القليل لمواجهة هذا التدهور لهيمنتها على العالم، فقد اختارت، ببساطة متناهية، أن تتجاهل ذلك الاتجاه الذى يقوض سيطرتها السياسية، الأمر الذى أصبح سياسة سائدة تتبناها منذ انسحابها من ڤيتنام حتى أحداث الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١.

وفى هذه الأثناء، بدأت القوى المحافظة الحقيقية فى السيطرة على الدول الكبرى، وعلى المؤسسات الداخلية فى تلك الدول. وقد تميزت حقبة الثمانينيات من القرن العشرين بهذا الهجوم الليبرالى الجديد Neoliberal الذى تمثل فى نظامى مارجريت ثاتشر، ورونالد ريجان، وظهور صندوق النقد الدولى كمؤسسة فاعلة على المسرح العالمى.

وسيطرت القوى المحافظة التى ظلت ما يربو على قرابة قرن تحاول أن ترسم لنفسها صورة القوى الليبرالية الرشيدة، وأُرغمت ليبرالية الوسط أن تدافع عن نفسها زاعمة أنها أكثر فاعلية وتأثيرًا من المحافظين. وقد كانت برامج الأحزاب المحافظة واضحة، فهى تحاول داخليًا أن تنفذ سياسات تخفيض تكاليف العمل، وتحديد القيود البيئية المفروضة على المنتجين إلى الحد الأدنى، وتخفيض مزايا الرعاية الصحية التى تكفلها الدولة. وكانت النجاحات التى حققتها تلك السياسة متواضعة فى جوهرها، ومن ثم اندفع المحافظون إلى الساحة الدولية الخارجية بنشاط وهمى. فجاءت الاجتماعات ومؤتمرات ديڤوس فى أثناء المنتدى الاقتصادى العالمى لتكون بمثابة ملتقى للصفوة ووسائل الإعلام، وتحول صندوق النقد الدولى إلى ناد لوزراء المالية وكبار رجال البنوك. وسعتً الولايات المتحدة إلى إنشاء منظمة التجارة العالمية World Trade Organization لتفرض تدفق التجارة الحرة عبر الحدود العالمية. وانهار الاتحاد السوڤيتى من دون أن تنتبّه الولايات المتحدة. كلا، لقد هاجم رونالد ريجان الاتحاد السوڤيتى ووصفه بأنه "إمبراطورية الشر"، واستخدم لغة خطابية، مطالبًا بتدمير حائط برلين، ولكن الولايات المتحدة كانت لا تعنى ما تقول فى الواقع، وهى ليست المسئولة عن انهيار الاتحاد السوڤيتى. والحقيقة هى أن الاتحاد السوڤيتى وأوروبا الشرقية، قد تعرضا للانهيار بسبب تحرر الشعوب من الوهم الذى خلقه لهما اليسار القديم، جنبًا إلى جنب مع سياسة التحرير الداخلى (إعادة البناء Perestroika، والشفافية Glasnost التى قام بها الزعيم السوڤيتى ميخائيل جورباتشوف فى محاولة لإنقاذ نظام حكمه، وتصفية آثار اتفاقية يالطا. ولقد نجح جورباتشوف فى تصفية اتفاقية يالطا، ولكنه أخفق فى إنقاذ الاتحاد السوڤيتى (والحق يقال إنه كان قاب ...

... قوسين أو أدنى من النجاح لولا سوء طالعه).

أصيبت الولايات المتحدة بالذهول من وقوع هذا الانهيار المباغت، وكانت لا تدرى كيف تتعامل مع نتائجه وعواقبه، إذ إن سقوط الشيوعية، كان يعنى، فى حقيقة الأمر، انهيار الشعار الذى كانت تدافع عنه، وهو شعار التحرر من الشيوعية وعبودتيها، ذلك الشعار الذى يعُدّ المُبرر الأيديولوچى لهيمنة الولايات المتحدة وسيطرتها على العالم.

وأدى القضاء على الشرعية الدولية إلى غزو العراق للكويت، الأمر الذى ما كان يمكن أن يحدث قط لولا انهيار ترتيبات يالطا. لم يكن صدام حسين ليجرؤ قط على القيام بذلك فى ظل سريان مفعول اتفاقية يالطا.

وإذا نظرنا إلى الخلف، لوجدنا أن جهود الولايات المتحدة فى حرب الخليج حققت نوعًا من الهدنة وحسب، عند الخط السابق نفسه، الحدود القديمة نفسها، فى حقيقه الأمر. لكن هل يمكن القوة المهيمنة على العالم أن ترضى لنفسها بالدخول فى حرب مع قوة إقليمية مشاكسة ؟ أثبت صدام حسين أنه يقدر أن يدخل فى حرب مع الولايات المتحدة، ويخرج منها ظافرًا من دون أن يسقط نظام حكمه، بل إن تحديه الصريح للولايات المتحدة قد جرح كرامتها وكبرياءها داخليا، أكثر بكثير مما حدث فى ڤيتنام، خاصة طائفة الصقور. وهذا يفسر الحماسة الشديدة والرغبة العارمة الراهنة فى غزو العراق،و تحطيم نظام حكمها.

وكانت حلبتا الصراع الرئيستان فى العالم، منذ حرب الخليج حتى أحداث الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١، هما الشرق الأوسط، والبلقان.

لا شك أن الولايات المتحد لعبت دورًا دبلوماسيًا كبيرًا فى الإقليمين. وإذا نظرنا إلى الوراء، فسوف نجد أن النتائج كانت ستختلف كليةً لو أن الولايات المتحدة وقفت موقفًا انعزاليًا تجاه الصراعين. ففى البلقان، تفتت دولة متقدمة اقتصاديًا ومتعددة الأعراق (يوغوسلاڤيا) إلى عدة دول، تلك الدول التى كانت تتألف منها أساسًا. وعلى امتداد ما يربو على مائة عام، كانت هذه الدول التى تتكون منها يوغوسلاڤيا، مشغولة بحروب عرقية Ethnification ، وتعانى أعمال العنف الوحشية، وانتهاك حقوق الإنسان، بل الحروب المباشرة. وقد حقق التدخل الخارجى هدنة ،و أنهى العنف الجامح الوحشى، ولكنه لم يقض على الحروب العرقية Ethnification، بل عززها وسوغها إلى حد ما. لكن يبقى السؤال : هل كانت هذه الصراعات سوف تنتهى بطريقة مغايرة لو لم تتدخل الولايات المتحدة ؟ ربما استمرت أعمال العنف لمدة أطول،

ولكن النتائج الأساسية لم تكن من المحتمل أن تتغير أو تتبدل كثيرًا. أما فى الشرق الأوسط، فالصورة تبدو أشد قتامةً، إذ إن الولايات المتحدة كانت أكثر تورطًا، وأشد إخفاقًا. وفى البلقان والشرق الأوسط، على حد سواء، أخفقت الولايات المتحدة فى ممارسة هيمنتها بصورة فعَّالة، وليس بدافع من عدم توافر الإرادة، أو بذل الجهد المطلوب، ولكن بسبب افتقارها إلى القوة الحقيقية!!

سيطرة الصقور

ثم حملت أحداث الحادى عشر من سبتمبر الصدمة ورد الفعل المصاحب لها، وتعرضت الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية للهجوم من الهيئة التشريعية فى الولايات المتحدة. وراحت وكالة المخابرات تزعم أنها حذرت إدارة الرئيس بوش من هجوم محتمل. ومع تركيز الاهتمام على تنظيم القاعدة، وبراعة أجهزة الاستخبارات الأمريكية، لم تستطع الوكالة التنبؤ بما حدث، وبالتالى الحيلولة دون وقوع الهجمات الإرهابية. وكان هذا ما قاله مدير وكالة المخابرات المركزية السيد چورج تينت. ولا يمكن مثل تلك الشهادة، التى أدلى بها المدير، أن تواسى حكومة الولايات المتحدة أو شعبها. وبغض النظر عما سوف يقرره المؤرخون فى المستقبل، فقد كانت هجمات الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١ تحديًا كبيرًا لقوة الولايات المتحدة، إذ إن المسئولين عن هذه الهجمات لا ينتمون إلى قوة عسكرية كبرى، بل إنهم أعضاء من قوة غير دولية، على درجة عالية من التصميم، وبعض الأموال، وعصابة من الأنصار المخلصين، وقاعدة قوية فى دولة ضعيفة. بإيجاز شديد، هم، عسكريًا، لا شىء، مجرد لا شىء . ومع هذا كله، نجحوا فى القيام بهجوم جرىء على الأرض الأمريكية.

وعندما تولى جورج بوش السلطة وجَّه سهام نقده إلى إدارة كلنتون، وإلى طريقة تناولها للشئون العالمية. ولم يعترف بوش ومستشاروه بأن الطريق الذى سلكه كلينتون هو الطريق نفسه الذى سار فيه الرؤساء الأمريكيون جميعًا بدءًا من رونالد ريجان، ومرورًا بجورج هـ. و. بوش، مع إدراكهم ووعيهم اليقينيين. وقد كان هذا الطريق عينه، هو الذى سار فيه الرئيس الحالى جورج دبليو بوش قبل وقوع أحداث ١١سبتمبر٢٠٠١. وليس المرء بحاجة إلى أن ينظر إلى الكيفية التى كان يعالج بها بوش الأمور ليدرك أن الحكمة كانت عنوانًا لتلك المعالجة. والمثال على ذلك هو موقفه من إسقاط الصين لطائرة أمريكية فى شهر إبريل من عام ٢٠٠١م.

وفى أعقاب الهجمات الإرهابية، غَيَّر جورج دبليو بوش من مسار سياسته ، وأعلن الحرب على الإرهاب . وأكد للشعب ...

... الأمريكى، أن "نتيجة تلك الحرب يقينية". وأعلن للعالم أجمع : "إنكم إما معنا وإما ضدنا". وبعد طول إحباط الإدارات الأمريكية المحافظة، سيطرت الصقور على الساحة السياسية الأمريكية. وهم صرحاء فى موقفهم، ألا وهو أن الولايات المتحدة تمتلك قوة عسكرية عملاقة. ومع ذلك، فإن زعماء العالم الخارجى العديدين يعتبرون أنه ليس من الحكمة أن تستعرض الولايات المتحدة عضلاتها العسكرية، وأن هؤلاء الزعماء أنفسهم، لن يصنعوا شيئًا، ولا يقدرون أن يصنعوا شيئًا إذا فرضت الولايات المتحدة إرادتها على بقية العالم. إن الصقور الأمريكية تعتقد أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تتصرف كقوة استعمارية إمبريالية لسببين جوهريين : أولهما أن الولايات المتحدة سوف تفلت من عواقب هذا العمل، ولن يقدر أحد أن يعاقبها، وثانيهما أنه إذا لم تمارس الولايات المتحدة قوتها، فإنها سوف تعانى التهميش بصورة متزايدة.

وفى أيامنا هذه، يتجلى موقف الصقور الشرس فى ثلاثة مظاهر :

١- الهجوم العسكرى على أفغانستان .

٢- الدعم غير البين، غير المستتر، لإسرائيل فى سعيها لتصفية السلطة الفلسطينية.

٣- غزو العراق الذى يجرى الاستعداد له على قدم وساق.

وليس فى مقدورنا أن نقوِّم الآن هذه الاستراتيجية ولم يمض أكثر من عام على هجمات سبتمبر الإرهابية. لم يحن الآوان بعد لمثل هذا التقويم. ولكننا نقدر القول بأن هذه المخططات قد أفضت، حتى الآن، إلى إسقاط نظام طالبان، من دون التفكيك الكامل لتنظيم القاعدة، أو القبض على قياداته البارزة، التدمير ونشر الخراب فى فلسطين، من دون القضاء على ياسر عرفات، كما وعد آرييل شارون، عدا تصاعد معارضة حلفاء الولايات المتحدة فى أوروبا والشرق الأوسط، العارمة، ضد التخطيط لضرب العراق.

وتؤكد قراءة الصقور الأمريكية للأحداث أن معارضة عمل الولايات المتحدة، مع خطورتها، لم تتجاوز المعارضة الشفهية. إلى حد بعيد، إنها حرب كلامية ليس غير. فلم تبد أوروبا الشرقية، أو روسيا، أو الصين، أو السعودية، استعدادها لقطع العلاقات مع الولايات المتحدة بصورة تدعو إلى الإحساس بالخطر. بعبارة أخرى، يرى الصقور أن الولايات المتحدة قد أفلتت بفعلتها من دون أىّ عقاب. ومن هذا الموقف، يفترض الصقور أن الموقف نفسه، والنتيجة نفسها، سوف يتكرران فى حالة الغزو الفعلى للعراق، وبعد ذلك، فى أماكن أخرى من العالم، سواء إيران، أو كوريا الشمالية، أو كولومبيا، وربما إندونيسيا. ومما يدعو

إلى السخرية أن قراءة الصقور للأحداث قد باتت هى قراءة اليسار العالمى للأحداث إلى حد بعيد، والسبب الرئيس الكامن وراء ذلك هو تخوفهم من تزايد فرص نجاح الولايات المتحدة فى السياسة التى تتبناها.

بيد أن قراءة الصقور للأحداث تتميز بالخطر الفادح، وسوف تؤدى إلى انهيار الولايات المتحدة، وسوف يتحول الانهيار المتدرج نحو الهاوية إلى سقوط سريع، مدوى الصوت. وسوف تفشل خطط الصقور لجملة أسباب عسكرية، واقتصادية وأيديولوچية.

لا مراء أن أقوى ورقة تمتلكها الولايات المتحدة سوف تظل هى قوتها العسكرية، بل حقيقة الأمر أنها ورقتها الرابحة الوحيدة ليس غير.

فالولايات المتحدة اليوم تستخدم أشد الأجهزة العسكرية رعبًا فى العالم. ولو أننا صدقنا الادعاءات التكنولوچية العسكرية الحديثة، التى لا مثيل لها إلا فى أمريكا، فمعنى ذلك أن التفوق العسكرى الأمريكى على بقية دول العالم أصبح اليوم أعظم مما كان عليه منذ عقد من الزمان. ولكن هل يعنى ذلك أنها تقدر أن تغزو العراق بمثل تلك السرعة التى تتخيلها، وتُسقط النظام الحالى، وتقيم نظامًا حاكمًا صديقًا، ومستقرًا ؟ هذا أمر غير محتمل، وبعيد المنال، خاصة إذا ما استحضرنا إلى الذهن، وتذكرنا جيدًا أن الولايات المتحدة، فى حروبها الثلاثة التى خاضتها منذ عام ١٩٤٥م (فى كوريا، وڤيتنام، وحرب الخليج)، خرجت مهزومة من إحداها، وانسحبت فى الحربين الأُخريين. ولا يمكن القول بأن هذا سجل مشرف!!

فجيش صدام حسين ليس هو جيش طالبان، وسيطرته العسكرية على بلاده من الداخل أكثر تماسكًا بكثير من طالبان. إن مثل هذا الغزو يتطلب بالضرورة قوات برّيّة ضخمة تشق طريقها محاربةً إلى بغداد، وسوف يؤدى ذلك بالقطع إلى سقوط ضحايا. ثم إن هذه القوات البرية فى مسيس الحاجة إلى نقاط انطلاق ومسرح عمليات، وقد أعلنت السعودية بجلاء أنها لن تسمح بأن تكون أراضيها مسرحًا لتلك العمليات. فهل سوف تساعدنا الكويت أو تركيا ؟ ربما لو مارست الولايات المتحدة كل قواها .

فى الوقت نفسه، قد يقوم صدام حسين بنشر كل أسلحته التى يمتلكها، وهى الأسلحة التى تتخوف الولايات المتحدة منها، وتثير قلقها، ولا تعرف مدى خطورتها. كلا، قد تنجح الولايات المتحدة فى لىّ ذراع بعض الأنظمة العربية الحاكمة، غير أن الحماسة الشعبية لن تقبل هذا، حيث إن الشعوب تعتبر أن المسألة كلها نتاج طبيعى للتحيز الأمريكى ضد العرب فى الولايات المتحدة. هل يمكننا أن ...

••• ننتصر فى هذه الحرب ؟ لقد أعلنت هيئة الأركان العامة البريطانية أن هذا الانتصار غير ممكن ، وقد أبلغت تونى بلير ذلك.

وهناك قضية "الجبهات الثانية" Second Fronts. ففى أعقاب حرب الخليج، بدأت القوات العسكرية الأمريكية تستعد لاحتمال الدخول فى حربين إقليميتين أُخريين فى وقت واحد. وبعد فترة من الوقت، تخلت وزارة الدفاع، البنتاجون، بهدوء عن هذه الفكرة، لأنها غير عملية من ناحية، وباهظة التكاليف من ناحية أخرى.

ولكن من يقدر أن يتيقن أن أعداء الولايات المتحدة لن يضربوا ضربتهم عندما تسقط فى مستنقع العراق ؟ لا بد أن نمعن فى النظر طويلاً أيضًا فى موضوع التسامح والاحتمال الشعبى الأمريكى لهزائم أخرى، أو لنقل حالات اللا نصر واللا هزيمة.

إن الشعب الأمريكى يتأرجح بين نزعتين : نزعة الحماسة الوطنية المؤيدة لأىّ رئيس أمريكى فى وقت الحرب، ونزعة الانعزالية والانغلاق على الذات. ومنذ عام ١٩٤٥، اصطدمت الحماسة الوطنية بالجدار كلما ارتفعت أعداد الموتى. لماذا يختلف رد الفعل الشعبى الآن ؟ لو افترضنا أن طائفة الصقور، وهم جميعًا مدَنيوُّن، لاعلاقة لهم بالعسكرية، وغير منفتحين على الرأى العام، وافقوا على ذلك، فلا أظن أن لواءات الجيش الأمريكى، الذين اكْتَووا بنار الحرب فى ڤيتنام سوف يفعلون. ماذا عن الجبهة الاقتصادية ؟ فى عقد الثمانينيات من القرن العشرين أصيب محللون أمريكيون عدة بالهستيريا من المعجزة الاقتصادية اليابانية. ثم هدأت تلك الهستيريا فى عقد التسعينيات من القرن العشرين عندما تحدثت وسائل الإعلام حديثًا واضحًا عن المشكلات الاقتصادية التى تواجهها اليابان. والآن تبدو السلطات الأمريكية راضية بعد أن وثقت أن الاقتصاد اليابانى يتخلف كثيرًا عن الاقتصاد الأمريكى. وفى هذه الأيام، تميل الولايات المتحدة إلى تلقين بعض صانعى السياسة اليابانية محاضرات عن كيفية تصحيح أخطائهم الاقتصادية.

وهذا الإحساس بالزهو لا يبدو مشروعًا من أى وجه، إذا ما درسنا مدلول تقرير صحيفة "النيويورك تايمز" الصادرة بتاريخ ٢٠ إبريل ٢٠٠٢، والذى جاء فيه : "... إن أحد معامل الأبحاث اليابانية قد طوَّر أسرع جهاز حاسب آلى فى العالم، وهو جهاز على درجة عالية جدًا من الكفاءة، فهو يقدر أن يدرس قدرًا من المعلومات يضارع عشرين جهاز حاسب آلى من أسرع الأجهزة الأمريكية مُجْتمعة، وإنه يتفوق على الجيل السابق من الأجهزة، المعروف باسم .I.B.M ، وهو

إنجاز.... يُعدّ دليلاً قاطعا على أن السباق التكنولوچى الذى ظن مهندسو أمريكا أنهم قادرون على الفوز به لم ينته بعد".

ويستطرد التحليل الذى يقدمه التقرير ليقول : إن هناك أوليات تكنولوچية وعلمية تختلف من أمريكا إلى اليابان. فالجهاز اليابانى مصمم لتحليل التغييرات المناخيّة، فى حين أن الجهاز الأمريكى مصمم لمحاكاة الأسلحة. وهذا الخبر يجسد أقدم قصة فى تاريخ القوى التى تسعى إلى الهيمنة على العالم. فتلك القوى تركز على تطوير الجانب العسكرى حتى لو كان فى ذلك إضرار باقتصادياتها. أما الدولة المرشحة لأن تخلفها على عرش القوة، فهى الدولة التى تركز جُلَّ اهتمامها على بناء اقتصادها. وكان هذا النهج الأخير هو الذى أثبت جدواه دائمًا على مر العصور. وقد أفاد الولايات المتحدة نفسها فى وقت من الأوقات. لماذا لا يفيد اليابان الآن خاصة إذا تحالفت، مع الصين ؟

وفى نهاية المطاف، يتبقى المجال الأيديولوچى. ولا شك أن الولايات المتحدة تعانى الضعف النسبى، ويزداد الأمر سوءًا، بسبب النفقات العسكرية الباهظة التى تتكبدها الولايات المتحدة من الاستراتيچيات والسياسات التى تتبناها الصقور. فإن واشنطن تعانى- معاناة حقيقية - العزلة السياسية، حيث لا يعتقد أحد فى العالم (إلا إسرائيل) أن موقف الصقور يتسم بالعقلانية والمنطق، أو يستحق التشجيع. وتحجم الدول الأخرى عن التصدى للولايات المتحدة بطريقة مباشرة، إما خوفًا وإما طمعًا، بل إن مجرد جرّ تلك الدول وجذبها إلى موقف الولايات المتحدة يسبب لنا قدرًا كبيرًا من الأذى، ويجرح الكرامة.

ومع إدراك الولايات المتحدة لهذا الوضع، فإن رد فعلها لا يتجاوز حدود زيادة لىّ الذراع فى غطرسة وغرور زائفين. ولا مراء فى أن آفة الغرور لها مثالبها وسلبياتها. وأى امرئ يستدعى كل قواه مرة واحدة، فلن يجد كثيرًا من هذه القوة فى المرة التالية. ومن المؤكد أن الخنوع يولِّد السخط والاستياء. ولقد حظيت الولايات المتحدة، منذ ما يربو على مائتى عام، بحظ وافر من المصداقية. ولكنها فى هذه الأيام تجهز على هذا الرصيد، بنحو أسرع من الإجهاز على رصيد الذهب الذى باعته فى الستينيات من القرن العشرين .

وستواجه الولايات المتحدة أحد احتمالين فى السنوات العشر القادمة . إن الاحتمال الأول هو أن تسير على طريق الصقور ، وتنهج نهجها ، بما يترتب على ذلك من نتائج سلبية للجميع ، خاصة للولايات المتحدة نفسها . أما الاحتمال الثانى فهو أن تدرك فداحة النتائج وسوء ...

... عاقبتها . وقد قال سيمون تسدال Simon Tisdall فى صحيفة الجارديان البريطانية فى الفترة الأخيرة إنه : "... حتى لو تجاهلت الولايات المتحدة الرأى العام العالمى، فإنها لن تقدر أن تخوض حربا ناجحة ظافرة ضد العراق، من دون تدمير كبير لمصالحها الاقتصادية، ومصادر الطاقة التى تحتاج إليها. لقد أصبح بوش يتحدث بلهجة خشنة، دونما فاعلية تذكر".

وإذا ما قامت الولايات المتحدة بغزو العراق، ثم أرغمت على الانسحاب، فإنها ستبدو أكثر عجزًا وفقدانًا لفاعليتها.

ومن الواضح أن آراء الرئيس بوش تتسم بضيق الأفق ومحدوديته إلى أقصى مدى ممكن. ولا يخامرنى أدنى شك فى أن الولايات المتحدة سوف تستمر فى الانهيار والأُفول كقوة حاسمة فاعلة فى مجال الشئون الدولية فى العقد القادم. والسؤال الجوهرى الذى يطرح نفسه، ليس سؤالاً حول ذبول الهيمنة الأمريكية واضمحلالها، فهذا أمر يحدث بالفعل، ولكن السؤال هو : هل تقدر الولايات المتحدة أن تبتكر أسلوبًا يجعل هذا الانهيار يحدث بالتدريج، وبأقل قدر من الدمار للعالم، ولنفسها ؟؟! ■